دفترٌ
أسوَد
قصة قصيرة
أحمد فؤاد
عالم مواز

منصة ثقافية لإثراء المحتوى العربي

www.3alammowazy.com

.....

دفترٌ أسوَد

قصة قصيرة

بقلم / أحمد فؤاد

إهداء

إلى الأرواح المُنكَسِرة...

لا تكسروا أرواح قوم آخرين!

دفتر أسود

1

شهق وائل بشكل عنيف وهو يفتح عينيه على قدر اتساعهما. رغم قدرته على الإبصار إلا أنه لم يميّز أي تفاصيل حوله. كانت طاقته مُركزة بشكل كامل على محاولة السيطرة على نبضات قلبه التي تخفق في جنون. تتابعت عمليات الشهيق والزفير بشكل مُخيف، حتى أنه شعر بجفاف حاد في حلقه يُنبئ بجرح وشيك.

خلال دقيقة... بدأ معدّل التنفس في رحلته إلى حالته الطبيعية تدريجيًا، واستطاع أخيرًا أن يأخذ نفسًا عميقًا يملأ به رئتيه المنهكتين. أغمض عينيه ثم أخرج الهواء من شفتيه المضمومتين بكل بطيء مستمتعًا بلذةٍ تشبه لذة الناجي من الغرق. بث ذلك فيه الكثير من الهدوء. عندها بدأ يشعر بثقل رأسه على الوسادة، فتح عينيه وتأمّل ظِل الثُريّا المُعلقة في السقف على ضوء هارب من مكان ما.

"كابوس"... أخبر نفسه بذلك. تمتم مُستغفرًا دون أن يحرك جسده. كان يشعر بعطش شديد، لكنه كان مُرهقًا إلى أقصى درجة. فكّر أن دقيقة أخرى من التنفس المنتظم ستعيد له بعض الطاقة كي يستطيع النهوض. نظر في كسل إلى الستارة المزركشة بجواره، لم يجد ضوء متسلل من خلفها ففهم أنه لا يزال في حضرة الليل.

سأل عقله الذي بالكاد بدأ يستعيد صفاءه؛ عن تفاصيل الكابوس الذي داهمه للتو. لكن الإجابة التي حصل عليها كانت مُبهمة. بحث في ذكرياته اللامتناهية كحبات رمل في صحراء عظيمة، إلا أن تلك التفاصيل بدت له كالسراب. كلما كان على وشك الإمساك بتلك الذكرى، يكاد يرى تفاصيلها الضبابية، وأحاسيسه المصاحبة لها -والتي يشعر بها يقينًا- تمنحه أملًا في الوصول إلى غايته. وبمجرد أن يصل إليها؛ تختفي كل التفاصيل... ويدرك بعد فوات الأوان أن الأحاسيس التي كان مُتأكدًا منها قد اختفت من داخله هي الأخرى مثل بقية التفاصيل.

"لن أتذكّر" قال لنفسه في يأس. لم يضايقه ذلك كونه يعرف أنه سرعان ما سينسى أي تفاصيل بعد بضعة دقائق في خضم رحلة الحياة اليومية. لكن ما ضايقه حقًا كان ذلك الشعور المُقبض الذي لم يتركه منذ أن استيقظ. تحسّس الزجاجة التي بجانبه قبل أن يمسك بها ويرتشف منها بعض الماء.

نظر إلى ليلى زوجته، لكنه لم يجدها جواره. فكّر أنها قد غفت على مقعد الصالة أمام التلفاز أثناء مشاهدتها أحد المسلسلات الأجنبية التي تعشقها. كانت تكرر هذه العادة منذ بضعة أسابيع. تحديدًا بعد مشاجرتهما التي كُسر فيها شيئًا ما بينهما، كان مجرد شجار أحمق بلا سبب واضح، أو بالأحرى لأسباب جليّة لا يرغب أحدهما في البوح بها للآخر. وكأي زوجين أحمقين قاما بتبادل اتهامات فارغة بدلًا من حل مشاكلهما بجرأة. تحوّل الأمر إلى مباراة في التفنن في جرح الآخر، ومع تراكم الجروح لدى الطرفين، ضرب الصقيع مشاعرهما التي بلغت

حرارتها ذات يوم درجة حرارة الشمس. تعاظم الحاجز النفسي بينهما حتى لم تعد روحيهما قادرتان على رؤية بعضهما البعض. وتسرّب الحب من حياتهما المشروخة حتى باتت فارغة تمامًا من المعنى.

تمنّى إن كانت جواره الآن حتى وإن كانت توليه ظهرها في تجاهل، فليس من الجيد أن يستيقظ المرء على كابوس ليجد نفسه وحيدًا.

قام إلى الحمّام مُتكاسلًا، يهتدي -وسط ظلام الغرفة- ببقايا ضوء قادم من خلف باب الغرفة. قضى حاجته، ثم غسل يديه. تأمّل فرشاة أسنانه وراودته فكرة في خياله أن يملك فرشاة يكنس بها تشوّش ذهنه المزعج! نظر إلى وجهه في المرآة المُعلّقة بنظرة خاوية، فقابلته صورته المعكوسة ومنحته نفس النظرة.

غسل وجهه بماء بارد في محاولة لتحرير روحه من سطوه الشعور المُقبض المُسيطر عليه منذ أن استيقظ. لكنه شعر بحرقة مؤلمة تملأ وجنتيه. ضغط على أسنانه من الألم ومد يده مكان المنشفة يلتقطها من جواره. جفف وجهه سريعًا فآلمه الاحتكاك. نظر إلى المرآة لاحظ وجود خربشات متفرقة على وجنتيه، لاحظ أنها تمتد إلى العنق أيضًا. اندهش لأنه لم يرها قبل أن يبللها بالماء، عزى ذلك إلى تشوش ذهنه.

تساءل عن سبب وجود هذه الخربشات على وجهه. تُرى هل تشاجر مع ليلى مساء أمس؟ لا يذكر ذلك! لم يحدث أبدًا أن وصل الأمر بينهما إلى العراك بالأيدي، كانا بارعين في إيذاء النفس دون استخدام القوة، هكذا آمنا بأنه نقاشًا مُتحضرًا!

اتجه إلى الصالة كي يسألها بنفسه. على ضوء المصباح الجانبي (أباجورة) وجدها نائمة على الأريكة، بينما شاشة التلفاز مفتوحة على الوضع الصامت. تأمّل وجهها في حنين، كان يحب أن يطيل النظر إلى ملامحها عندما تغفو؛ حينها تبدو أكثر رقة وأقرب شبهًا بالمرأة التي أحبها. أعاد خصلتها الناعمة التي غطت نصف وجهها، شعر بحرارة خدها الذي انكشف. تمنى أن يطبع قبلة على خدها الدافئ كي يستعيد بعضًا من نفسه التي فقدها في وقت ما بين الماضي والحاضر، لكنه خشي أن تستيقظ فتجده على هذه الحالة. كاد أن يعود أدراجه إلى غرفة النوم، لكن الشعور المقبض في قلبه جعله يقرر النوم بالقرب منها. تمدد على الأريكة المجاورة كي يتلمّس بعض الأمان في صحبتها. حدّق بلا أدنى انتباه في الشاشة أمامه والتي تعرض فيلمًا ما، كان يأمل أن يأتيه النوم سريعًا كي يتخلص من الضيق الذي يملأه، أو قبل أن تستيقظ ليلى فيضطر إلى النوم بمفرده. انتبه إلى الأشخاص على الشاشة، بدا له أنه يعرفهم. حاول أن يدقق النظر، لكن النعاس كان قد غزا وعيه تمامًا، وراح في نوم عميق.

**

2

فتح عينيه في بُطء فغمره ضوء الشمس الساطع. أغمض عينيه لبرهة حتى يعتاد على درجة السطوع. أخذ شهيقًا عميقًا ملأ به رئتيه بالهواء، لم يجد أي أفكار تدور في عقله، فبدا له أن عقله يقوم بعملية إحماء قبل أن يعمل بشكل روتيني كعادته! أسعده هذا الخواء المؤقت بشكل ما.

ضيق عينيه فتكرمش جلده من حولها. رمش بشكل تدريجي حتى فتح حدقتيه بشكل عادي فانفردت تجاعيده مرة أخرى. كان مُمددًا على الأريكة أمام التلفاز في صالة منزله، نظر إلى الأريكة المجاورة فلم يجد ليلى عليها، فخمّن أنها خرجت إلى النادي مُبكرًا. اعتدل في جلسته، ومسح وجهه بكفيه وهو يتمنى ألا تسأله حين لقائها عن سبب نومه جوارها في الصالة. تراجع عن أمنيته ورأى أن سؤالها سيعطيه على الأقل حق الرد، وأن ذلك أفضل ألف مرة من أن تمنحه نظرة ازدراء صامته لا يستطيع معها إلا أن يحتقر ضعفه وخوفه الذي جعله يتخذ ذلك القرار.

أمسك جهاز التحكم كي يغلق التلفاز وهو ينظر إلى الشاشة بلا اكتراث إليه، كان يُعرَض إعادة لأحد المسلسلات التي تتكون من عشرات الحلقات المُكرّرة. حدّق في الحبيبين اللذين يجلسان على ضفة نهر ما. يعطيان العالم ظهريهما فلم يستطع رؤية وجهيهما، لاحظ أن رأسيهما تتمايلان على وقع نغمة أغنية ما. وعلى الرغم من أن التلفاز على الوضع الصامت، إلا أنه خيُل إليه أنه يسمع همساتهما البريئة حتى أن رأسه تمايل معها. شاهد البطل يطبع قبلة على رأس البطلة ثم يضمها إلى حضنه، أسكنت رأسها على كتفه فانسلّت من شعرها خصلة ناعمة. ظهرت كلمة النهاية باللون الأسود.

تساءل كيف يمكن أن تكون هناك نهاية لحياة مستمرة؟ وفكّر أن نهايات جميع قصص العالم سخيفة. كان يحب النهايات المفتوحة رغم كراهية الناس لها. لكنه رأى أنهم معذورون في ذلك؛ فكيف يمكن للإنسان أن يطمئن للسعادة وهو يعرف أن الغد مفتوح على جميع الاحتمالات!

ضغط على زر في جهاز التحكم وأغلق التلفاز. اتجه إلى الحمام وغسل وجهه بماء بارد في محاولة لاستعادة صفاء ذهنه، وبدون أن يجفف وجهه، نظر إلى نفسه في المرآة، تطلّع إلى قطرات الماء المتساقطة. أحس بأن هناك شيئًا ما غير مألوف. أمعن النظر في المرآة لكنه لم ير سوى ملامحه التي لازمته طوال حياته. عيناه الزرقاوتان التي أخبرته ليلى عنهما ذات يوم أنهما أجمل من زُرقتي البحر والسماء! قرّب وجهه من المرآة ليتأكد أنهما لا تزالان زرقاوتان! منذ عام كان ليسخر من نفسه على شكّه هذا، لكنه أدرك مؤخرًا أن اليقين ليس كافيًا لرؤية الحقيقة. اطمئن أن عينيه بنفس لونهما الذي يعرفه، فتساءل لماذا إذن هجرتها ليلى إن لم يتغيّر لونها! تُرى هل فقدت شغفها به؟ هل حدث ذلك بسبب سفره الدائم في الأسابيع الأخيرة؟ تجاهل الإجابة بعد أن رأى أنه من الاجدر أن يفكّر لماذا لم تعد عينيه قادرة على رؤية روحها رغم أن ملامحها بقيت دون تغيير!

انتبه فجأة إلى راحة التبغ المتسللة إلى أنفه. ملأته الحيرة... هل بدأت ليلى التدخين؟

جرّته الرائحة حتى وجد نفسه أمام باب غرفة النوم المُغلق. كاد يطرقه إلا أن صوت ضحكات تناهى إلى سمعه. فكّر في كل الاحتمالات عدا المنطقية منها؛ أملًا منه أن تختفي كل الظنون التي بدأت تفترس توازنه.

ملأته رغبة عارمة بالانسحاب بعد أن راودته روحه المنكسرة أن يتجاهل الأمر. خادعته بأنها لن تعتبر تغافله إنكارًا بل مجرد تجاهلًا لوساوس سخيفة شريطة أن يكتفي بما ناله منها حتى الآن. كاد أن يتراجع بالفعل، إلا أن دفقة جديدة من الضحكات ميّز فيها صوت ليلى؛ غيّب عقله تمامًا.

فتح الباب في خِفّة صيّاد ماهر. تسلل بخطوات غير مسموعة إلى داخل الغرفة. استتر بجانب خزانة الملابس يتطلّع إليهما دون أن يكون في مرمى بصرهما. رآهما على سريره، لكنهما ليسا عاريين كما خمّن. كانت ليلى توليه ظهرها بينما تحجب بجسدها وجه الرجل الذي كان مُتكئًا أمامها على السرير. آلمه أن يراها في هذا الوضع المشين مُرتدية قميصها نومها الوردي، هديته لها في ذكرى أول عام لزواجهما. تطلّع إلى شعرها المُنسدل على ظهرها. وتذكّر أنه لطالما فاجأها بقبلة من الخلف. شعر بسخف تفكيره واستعان بكبريائه لوضع حد لهذه المهزلة الواقعة أمامه.

لمح سكينًا على طرف السرير، أسرع الخُطى من مخبئه تجاهه والتقطه في أقل من ثانية. أشهر سلاحه الأبيض ليطعن زوجته من الخلف بسرعة قبل أن يضعف أمام نظرة استرحام متوقعة منها. لكن يده تجمّدت في مكانها بعد أن اعتراه الذهول عندما رأى وجه الرجل المُستلقي في السرير.

رأى نفسه... ليس هناك مجالًا للشك. ما هذا العبث!

مرت أقل من ثانية شعر بأنها ساعة كاملة، قبل أن يتلعثم في ارتباك "كـ يـــ ف؟"

استدارت زوجته بغته... نظرت إليه... كان وجهها يشبه وجه ليلى، لكنه كان مُخيفًا... نفس ملامحها لكن يشعّ منها شرًا فظيعًا... اعتراه الفزع فظل متصلّبًا على وضعه.

منحته ابتسامة مُريعة قبل أن تغرس سكينها الصغير في حلقه.

**

3

هَبّ مُستيقظًا وهو يمسك عنقه في قوة. تتابعت أنفاسه كغريق تم إنقاذه للتو. تحسس رقبته ببطء فهدأت نفسه عندما وجدها جافة بلا دماء! دفن وجهه في كفّيه وهو يحاول التقاط أنفاسه. لعن الكوابيس في سرّه مُستعيذًا منها، وملأه الامتنان لأنه لا يزال على قيد الحياة.

اعتادت عينيه على ظلام الغرفة. نظر جواره فوجد ليلى توليه ظهرها كعادتها. وسُر أنها بجواره على كل حال. شعر بالظمأ فتحسّس موضع زجاجة الماء بجواره لكنه لم يجدها. زفر وهو يقوم في بطء كي لا يوقظ زوجته. وفكّر أنه كان محظوظًا أنها لم تستفيق على جلبة استيقاظه.

خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه في هدوء. على ضوء المصباح الضعيف استرشد ليصل إلى المطبخ من أجل أن يشرب. كان جفاف حلقه يزيد بشكل ما من إحساس الجرح الذي شعر به في حلمه! وتمنّى أن يزول ذلك بمجرد ترطيب حلقه بالماء.

أمسك بإحدى الزجاجات البلاستيكية؛ رفعها ليتدفق سيل الماء طامسًا بقايا ألم يحيا في ذاكرته فقط. كان ذلك عندما شعر بحركة من خلفه. نظر بحذر إلى خلف كتفه الأيمن، لم يجد شيئًا. أغلق الزجاجة وأعادها مكانها. شعر مرة أخرى بتلك الحركة. افترض أن عقله مشوّش فاستدار يواجه الباب الفارغ. سخر من ارتيابه؛ وأجبر نفسه على رسم ابتسامة ظنًا منه أنها ستمنحه بعضًا من الطمأنينة.

خرج من باب المطبخ... حاول أن يتجاهل المرآة المعلقة على الحائط المقابل له، إلا أنه -بلا إرادة- وجد نفسه ينظر إلى وجهه. انتابته قشعريرة وهو يتأمل نفسه في المرآة. أحيى ذلك مشهد الكابوس في عقله، عندما رأى نفسه في سريره! دفعه ذلك إلى أن يخاف من انعكاسه بشكل ما.

انتبه إلى ظلال سوداء ترتسم أمامه على الحائط ثم تختفي على حواف المرآة من جميع اتجاهاتها! تابع بعينيه مصدر تلك الظلال في هلع، وجدها آتية من السقف... من فوقه تحديدًا. بقعة سوداء بلا شكل محدد؛ مرسومة على السقف. تتسرب منها خطوطًا تجاه المرآة قبل أن تتلاشى على حدودها.

أغمض عينيه ومسحهما بقوة ثم أعاد النظر إلى السقف فلم يجد أي شيء غريب. تفحّص وجهه في المرآة في توجّس. رأى عينيه المُرهقتين، ولاحظ هالات سوداء تحاصرهما من الأسفل. تنهّد في كرب... كان واضحًا له أنه لم يستطع التخلّص من نوبات الأرق والكوابيس التي تلازمه منذ فترة. بدا له أنه يفقد عقله تدريجيًا مع استمرارها. لم تفلح الأدوية أو جلسات الاسترخاء في القضاء على تلك الهلوسات التي يراها في منامه بين الحين والآخر. لهذا توقف عن الذهاب إلى الطبيب وعن تناول الأدوية وحتى عن استكمال جلسات الاسترخاء. أخبرته ليلى بغضب ذات يوم حينما اكتشفت ذلك؛ بأنه يؤذي نفسه بتلك الطريقة وكأنه ينتقم من ذاته. إلا أنه لم يستطيع أن يشرح لها كم هو من المؤلم أن يُقتَل فيها الأمل كل يوم! أن يذهب كل مجهود له سُدى دون أي تقدّم. أن يشعر بكذب الجميع تشجيعًا له. أن يفقد الرغبة في البوح لعلمه الأكيد بأن لا أحد يستطيع مساعدته. لهذا تجاهلهم بعدما قرر أنه لم يعد يعنيه أن يفهموا أو لا يفهموا معاناته. فلن يشاركه أحد كوابيسه، أو يحلم بها بدلًا منه!

انتزعه صوت التلفاز من بحر أفكاره، جذبه صوت ضجيجه الأبيض، اقترب من الشاشة الفضيّة التي لمعت فيها نقاطًا تحمل جميع درجات اللون الرمادي، تتشكّل في كل لحظة لترسم ظلًا لصورٍ مرسومة في عقله الباطن. للوهلة الأولى رأى هذه النقاط كصورة مُقرّبة لعشب حديقة منزوعة اللون! لكن كلما اقترب تغيّرت معالم الصورة حتى أنه رأى تلك النقاط كآلاف من الوجوه متناهية الصغر تصرخ في رعب، خُيّل إليه أنها تناديه وكأنها محبوسة داخل إطار الشاشة! أنصت لصوت تشويش التلفاز وتساءل إن كان يسمع اسمه بالفعل وسط هذا الضجيج الناعم! فكّر إن كانوا يطلبون مساعدته، أو أنهم يحاولون تحذيره. لكنه شعر بالذعر عندما خطر في ذهنه احتمال أنهم يخدعونه كي ينضم إليهم في سجنهم الأثيري!

ملأه الرعب عندما أدرك أنه لا يستطيع أن يوقف تقدمه تجاه التلفاز، أحس بأنه مسلوب الإرادة، يسحبه شيء ما داخل الشاشة كمغناطيس عملاق. اغرورقت عينية بالدموع، اختلطت الأصوات في أذنيه، حتى أنه لم تعد لديه القدرة على تمييزها، تتبدّل الأصوات كل ثانية ما بين ترحيبات مُتشفّية وصرخات مُحذّرة! على بعد خطوات من التلفاز؛ رأى ابتسامات كريهة على الوجوه بالغة الصغر، كوّنت ابتسامة ضخمة على الشاشة، تزايد اتساعها حتى صارت فجوة عميقة تجذبه كثقب أسود.

انطفأت الشاشة فجأة. انتبه إلى أنه يلاصق سطحها البارد، فارتد إلى الخلف في رهبة وهو ينفض رأسه في عنف. تراجع أكثر حتى جلس على الأريكة دون أن يبعد نظره عن الشاشة. عاتب نفسه لتوقفه عن تناول الأدوية، فكّر أن ليلى قد تكون مُحقّة في مخاوفها بأنه يؤذي نفسه، وبأن هذا سيسبب المتاعب لمن حوله. داهمه سؤال مُباغت ... تُرى هل يرغب في إيذاء ليلى؟!

أضاءت شاشة التلفاز فجأة. ارتعد؛ شعر بقلبه يوشك على إصدار نبضاته الأخيرة. وفي محاولة يائسة للسيطرة على فزعه، بحث بعينيه سريعًا على جهاز التحكم، وجده على الأريكة المجاورة. انتابه الأمل فمنحه ذلك القدرة على كسر جموده والتحرك لالتقاطه. ضغط على زر الإغلاق بقوة شعر معها أن إصبعه اخترق الجسم البلاستيكي. لكنه شعر بالقنوط مع تكرار نقره المستمر الذي لم يفلح في إغلاق التلفاز. فكّر أن يفصل عنه الكهرباء، لكنه شعر بقشعريرة وهو يرى سلك الكهرباء ملقى على الأرض. حدّق في الشاشة وهو يسمع نداء يهتف باسمه وسط صوت التشويش. انتصب -بلا إرادة- لتلبية الدعوة. لكن الشاشة أعتمت فجأة وتوقف التلفاز عن العمل. انتظر متوجّسًا... أضاءت الشاشة ثم أظلمت، أضاءت ثم أظلمت، أضاءت ثم أظلمت. تتابع ذلك مرات عديدة بلا توقف، كأنها قد أُصيبَت بالمسّ. ملأت أذنيه ضحكات مخيفة. دفعته رغبته في الحياة أن يلقي بجهاز التحكم لكسر الشاشة مُطلقًا صرخة طويلة. انطفأت الشاشة فورًا رغم أنها لم تنكسر! ووجد نفسه غارقًا في صمت مُطبق.

ظل واقفًا في مكانه لاسترداد بعضًا من قوته التي فقدها في مقاومة لم يفهم كنهها! مع مرور الثواني بدأ يستعيد تماسكه، فسارع إلى الذهاب إلى غرفة النوم، كي يكون بجوار حليفته الوحيدة ضد هلاوسه... زوجته.

لم تكن لديه النيّة لإيقاظها، فقط يرغب في أن يكون بجانبها. أن يراها رؤى العين؛ من أجل أن يتيقّن أنه ليس وحيدًا. إن الوحدة هي مواجهة غير عادلة مع النفس! تذكّر هزائمه المتكررة منها، واعترف أنه -في حقيقة الأمر- يخاف من نفسه المخادعة! والتي كانت تعرف كل نقاط ضعفه؛ نزواته، حماقاته، غروره، غيرته، شكوكه. في كل مرة كانت تنتظره بكل ثقة لتفترسه في النهاية على مهل. وفكّر أن أخطر ما قد يواجهه الانسان في حياته هو نفسه!

في غرفة نومه؛ لم يجد ليلى في السرير. تنهّد في ضيق ولام نفسه على صرخته التي لابد أنها قد أيقظت زوجته. خمّن أنها في الحمّام. واستعد لعودتها بأن جهّز إجاباته المُعلّبة استعدادًا لأي سؤال ستلقيه عليه. بعد ثانية... رأى أن من الأفضل أن يتظاهر بالنوم بدلًا من تقديم مُبرّراته المحفوظة. على الأقل حتى يجد تبريرات جديدة يستعيد بها بعض اهتمام ليلى الذي بليّ مع التكرار!

تقدّم تجاه الفراش مُتعجّلًا، لمح صورته على المرآة المجاورة له. أخبره عقله الباطن بوجود أمر غريب. التفت إلى المرآة. انتصبت شعيرات جسده رُعبًا وهو يرى زوجته - في قميص نومها الوردي- تركض نحوه. حدّق في المرآة غير مَصدق، تلفتّ خلفه للتأكد... كانت ليلى آتية من داخل المرآة! اكتسحه الخوف وهو يرى نظراتها المتوعدة بالشر. رآها تقفز من الداخل تجاه السطح الأملس، وسيطر عليه هاجسًا بأنها ستخترق سطح المرآة بشكل ما لتفتك به!

لكنه وقع مغشيًا عليه قبل أن يتأكد من صحة هاجسه!

**

4

انتصب وائل في فراشه مفزوعًا. صرخ في رعب وهو ينزع كفًّا يتحسّس رأسه. حدّق متوجّسًا في زوجته التي تجلس بجواره على فراشهما. ساد الصمت إلا من صخب أنفاسه المتهدّجة. ارتبك في قراءة ملامح وجهها المتموجة، فرغم علامات العتاب والغضب والضجر التي يراها تتبدلّ عليها في تتابع مضطرب، إلا أنه كان يلمح تعاطفًا مُستترًا في نظراتها؛ كاد على إثره أن يرتمي في حضنها، لكنه قتل رغبته في مهدها بعد أن شكّ أن هذا التعاطف غير موجود سوى في ذهنه فقط.

ظلت ليلى ساكنة تحدّق في وجهه، وخمّن أنها تعطيه فرصة للتماسك، قبل أن يُنحّي هذا التخمين من تفكيره، بعد أن قدّر بأن لابد أنها تنتظر ردة فعله أولًا؛ كي تحدّد كيفية تعاملها معه. وفكّر أن هذا لم يكن غريبًا عليهما في حقيقة الأمر، كانا قد اعتادا -في الفترة الأخيرة- عدم التصريح بالضعف أمام الآخر، واتفقا دون إعلان أن يكون هذا مبدأ في دستور حياتهما معًا!

عندما لم يعد صوت أنفاسه مسموعًا، جاءه صوت ليلى غير مُكترث:

- كابوس آخر؟

تطلّع إليها وهو يومئ برأسه، كانت ترتدي قميصًا ورديًا ناعمًا يُحبه كثيرًا، تعجّب من ذلك... كانت قد كفّت عن ارتداء ما يعجبه منذ فترة، وتساءل إن كانت تقصد إغوائه الآن لسبب ما؟ تأمّل جمالها البادي أمامه، وشعر لوهلة بضعف شديد تجاهه. لمعت في عقله ذكريات خاطفة للحظات سعيدة جمعتهما سويًا، عندما كان الكلام يدور بينهما بلا ظنون مُسبقة؛ ولا غرض له سوى إسعاد طرف لآخر. فكّر أن يلمس قدمها مُداعبًا -كما اعتاد في الماضي- من أسفل الغطاء الذي يدثرهما، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

أسندت رأسها إلى مسند الفراش وهي تنظر إلى السقف. قلّدها كي يوحي لها بلا مُبالاته. استفهمت منه:

- وبعد؟
- مسألة وقت.
- لكنني لا ألحظ أي تحسّن.
- لم يختلف الأمر كثيرًا منذ أن توقفت عن تناول الدواء.

سخرت: حقًا؟

- أنا أشعر بذلك حتى إن لم أخبركِ من قبل.
- أنت لم تعد تخبرني بأي شيء.
- ...
- على كل حال... أرى أن حالتك تزداد سوءًا.
- لا أظن أن تثبيطك هذا سيساعدني.
- أنت لا ترغب في أن يساعدك أحد.
- كفّي عن محاولاتكِ... توقّفكِ سيُحسّن ذلك من حالتي كثيرًا.

قال وائل جملته الأخيرة وهو يتمنّى ألا توافقه ليلى. آمل أن تعترض، أن تُلحّ في دفعه للحوار معها، وأن تُحبط كل محاولاته للهرب منها! لم يدري لم يُصرّ على رفض أي مساندة، وكأنه انسانًا منيعًا غير قابل للهزيمة. لم يكن ليعترف بأنه مريض، لأنه بالأساس لم ير أن ما يمر به عِلّة. بل هي مجرد محاولة علاج ذاتية يقوم بها عقله للتعامل مع الضغوطات التي يواجهها من حوله. لكنه في قرارة نفسه يعرف أنه يحتاج إلى الدعم، إلى البوح، وإلى البكاء. يحتاج أن يُطَهّر نفسه من أجل أن يعود قويًا مثلما كان دائمًا منذ أن وُلِد، أو منذ أن تزوج!

تفاجأ من هذا التناقض المُستعر داخله. يحب ليلى ولا يرغب في مساعدتها له، يعرف أن علاجه معها ويعزف عنه. يؤمن بنقائها رغم ارتيابه فيها!

سمع تنهيدتها الحانقة قبل يأتي صوتها مُشوّب ببعض الضيق:

- أنت لا تعاني وحدك.
- لا أحد يشاركني كوابيسي.
- أنت تعرف أن الأمر لا يقتصر على الكوابيس.

تقلّص وجهه. لمح وجهها الناظر إلى السقف في ثبات. ردّ:

- ماذا تقصدين؟
- أتحدث عن شكوكك المُختلَقة السخيفة.
- المُختلَقة!
- أنت مندهش! وكأنني أنا من يتخيّل أوهامًا لا توجد سوى في عقلي.
- وكأنكِ تتهمينني بالجنون.
- أنت على وشك ذلك بالفعل. ألم تنتبه بعد؟

حاول أن يتذكّر؛ لكنه أحس بمنطقةٍ مظلمةٍ في ذاكرته، كطلسم مُبهم يراه ولا يدرك معناه. كان يفهم ما تتحدث عنه ليلى بشكل غامض رغم أنه لا يعرف تفاصيله.

سألها بحذر: عن أي شكوك تتحدثين؟

- من فضلك... لا داعي لهذا التحايل.
- ليلى... تحدثي بوضوح؛ فعقلي مُرهق وأشعر بالتشوّش بسبب هذه الكوابيس.
- عقلي مُشوّش... عقلي مُشوّش. لماذا توقفت عن تناول الأدوية إذن؟

احتدّ:

- لأن لا فائدة منها سوى أنها تسبب لي مزيدًا من التوتر.
- اسمع يا وائل... أنا حقًا أريد أن أساعدك، لكنني لن أتحمّل البقاء في هذا الوضع طويلًا.
- أنا لا أريد المساعدة، أستطيع أن أسيطر على الوضع.
- لابد أنك تمزح. أنت لا ترى وجهك عند استيقاظك فزعًا من كل كابوس.
- سيتحسّن الأمر بمرور الوقت.
- هل أنت مقتنع حقًا بذلك؟

كذب: نعم.

- إذن لا فائدة.
- ليلى... هل تهتمين حقًا بمساعدتي؟

التفتت بوجهها تتطلّع إليه، فأدار وجهه إليها بدوره. لكن عندما تلاقت نظراتهما، لم يعد يرى شيئًا سواها. وجد نفسه يسبح في عينيها العسليتين. لم يكن ينتظر إجابتها، بل كان يكفيه لمحة صدق واحدة في عينيها البريئتين كي يشعر بالأمان. راح يبحث فيها عن بقايا اهتمام حقيقي تجاهه؛ كان يملأ حياته ذات يوم. تاه في أعماق اللون العسلي الداكن حتى أنه لوهلة نسي سؤاله لها. أحس بروحه تهرب إليها تاركة إياه. وتمنّى أن يعود به الزمن كي يمنع بذرة الشك من تسميم حياته. انسابت خصلة من شعرها الناعم على وجهها، فأثارت فيه حنينًا جارفًا إليها. همّ أن يعانقها؛ إلا أنه تماسك بصعوبة بالغة، رغم أنه شعر برغبتها أيضًا في ذلك.

أزاحت ليلى خُصلة شعرها. هَمَسَت:

- أنت تعرف في قرارة نفسك الإجابة. إن اختلط عليك الأمر؛ اتبع قلبك، فقلبك يعرف دومًا ما ينساه عقلك.

استنكر:

- لماذا لا تجيبينني بشكل صريح؟
- لأنك لم تعد تثق بالحقيقة يا وائل... لم تعد تصدّقها.

انفعل:

- أريد أن أعرفها الآن... كرهت كل هذا الغموض.

اعتدلت في جلستها دون أن تزيح الغطاء من على نصفها السفلي، ثم أشارت بإصبعها إلى الطاولة الخشبية التي بجواره.

- اقرأ.

نظر إليها في عدم فهم، قبل أن ينظر إلى مكان إشارتها. اعتدل في جلسته ثم التقط من على الطاولة دفترًا صغيرًا أسود اللون مُعلّق به قلم صغير. أمسكه وهو ينظر إليها حائرًا:

- ما هذا؟
- الحقيقة.

فتح الدفتر في تردد على أول صفحاته. صرخت في وجهه كلمةٌ كُتِبَت بخط كبير "خائنة". انفجرت فجأة كل ذكرياته في وجهه، اخترقته كألف سكين حاد. عادت كل التفاصيل إلى عقله وصار يفهم كل شيء.

بمجرد أن تمالك نفسه، أحس ببلل من تحته، وانتبه إلى خيط أحمر يتسرّب من تحت الغطاء. إرتاع من منظر الدم. نزع الغطاء في عنف ليرى مصدر تدفّقه. ارتعد عندما وجد بركة من الدم مكان ليلى. نظر في رعب إليها غير مصدق. كان الدم ينساب من بطنها، بينما لم يكن نصفها السفلي -الذي كان مختبئًا تحت الغطاء- موجودًا.

عندما نظر إلى وجه زوجته، أدرك أنه قد فهم مُتأخرًا. تجمّد أمام نظراتها المتوعّدة، وهو يشاهد ابتسامتها البشعة على شفتيها. جاء صوتها كأنه آتٍ من الجحيم:

- لا مزيد من الغموض. أنت الآن تعرف كل شيء.

مالت نحوه في بطء مقيت. حاول أن يطلق صرخاته الحبيسة في حلقه، لكنها لم تقو على الهرب. وشعر بأن آخر دقة من دقات قلبه قد خفقت بالفعل!

**

5

وثب وائل من نومه وهو يشعر بارتجاف شديد في جسده. تعاظم صوت أنفاسه المتلاحقة في أذنيه، باغته الظلام من حوله فأغمض عينيه بقوة؛ وهو يدفن وجهه في كفّيه، في محاولة لتبديد خوف عارم اعتراه بسبب كابوس جديد لاحقه. انتظمت أنفاسه وأحس بأنه يستعيد رباطة جأشه. انتابته قشعريرة وهو يتذكر تفاصيل الكابوس. امتدت يده لتفتح ضوء المصباح الجانبي. طمأنه شعاع النور الخافت. نظر في أسى إلى مكان زوجته الفارغ جواره، واجتاحته موجة عظيمة من اللوعة. تلاشت رغبته في المقاومة، واستسلم لنوبة بكاءٍ جارف.

غرق في بحر ذكرياته مُتذكّرًا مأساته، وتألّم من الحال التي وصلت إليها حياته، رغم حرصه الشديد على أن تكون مثالية. لم تكن لديه رغبة سوى أن يكون سعيدًا، وتساءل إن كان قدره هو المسؤول عن فشله في تحقيق ذلك، أم أنه هو من جذب هذا الإخفاق إلى عالمه بنفسه! خلص إلى أن النتيجة واحدة مهما كانت الأسباب التي أدّت إليها، وأنه لمن الشجاعة أن يعترف أنه هو المسؤول عن مصيبته. لكنه تراجع عن الاعتراف بذلك، لأنه يعرف في قرارة نفسه أنه لم يكن واثقًا أبدًا فيمن حوله، والذين قد يكونوا هم السبب الحقيقي لخيبته، فقط هم بارعون في تحوير افتراءاتهم إلى حقائق غير قابلة للتفنيد.

كلما شعر بسخف أفكاره تذكّر طفولته، أبيه، أمه، منزله، وصديق طفولته آدم. عندما لم يكن مسموحًا له على الإطلاق أن يخبر آدم بأي حقيقة سوى التي حفظها عن ظهر قلب في بيته. "نحن أسرة سعيدة... تذكّر ذلك." هكذا كان يعيش سعيدًا فقط في معيّة صديقه، أو أثناء الزيارات العائلية التي لا يكاد يتعرّف فيها على أبيه وأمه المرحيين جدًا المُتحابين جدًا، حتى أنه تمنّى كثيرًا ألا يعود إلى البيت كي لا يلتقي بشبيهيهما فيه!

ولأنه كان مُجبرًا على العيش معهما، فقد اصطنع إذعانًا يريحهما، وأدّعى أنه بعيدٌ عن أي مشاكل تحدث أو يُخيّل له أنها تحدث بينهما؛ تمامًا مثلما طلبا منه! لكنه قرر سرًّا أن يؤسس بيتًا عندما يكبر ليكتشف فيه معنى آخر لمفهوم ضبابي في ذهنه يُسمّى السعادة.

جال ببصره في حسرة يُعاين غرفة نومه وأثاثها المُنمّق وألوان جدرانها المُبهجة. جفّت الدموع في عينيه، وخلَّفت تعاسة كئيبة، حتى أنه أحس بطعمها مُرًّا يسيل في حلقه. تأمّل صورة كبيرة مُعلّقة على الحائط تطل منها ابتسامة هانئة على شفتيه هو وليلى. تساءل... هل كان القدر يسخر منه عندما اعتقد هو أنه ظفر أخيرًا في هذا البيت بالأمان الذي كان دومًا يبحث عنه؟

واسى نفسه بأنه على الأقل قد نجح في التخلص من مصدر ارتيابه، وأن هذا لابد أنه سيجلب الأمان لروحه، حتى وإن لم يكن بنفس الصورة التي بحث عنها دائمًا! صحيح أن الثمن كان باهظًا، لكن منذ متى كانت اختيارات الانسان سهلة!

تطلّع مرة أخرى إلى مكان ليلى الفارغ في الفراش. اعتصره الألم وهو يهز رأسه في حُرقة. كان يحاول إنكار حقيقة احتياجه الشديد لها. بعد أن أدرك مُتأخرًا حماقة قراره الأهوج بأن يعيش الحياة بدونها!

عنّف نفسه في عُنف على ضعفه. كان يعرف أنها -منذ فترة- لم تعد هي ليلى التي أحبها وتزوجها. وعلى الرغم من أن كان راضيًا عمّا قام به، إلا أن جهله بالأسباب التي دفعتها إلى التغيّر؛ قد أصابه بالجنون. نهشته الرغبة في معرفة تلك الأسباب، حتى وإن زاد ذلك من عذابه. ولم يدر هل كان يبحث عن ذريعة لفعلته، أم عن عذر كي تحيا ذاكراها داخله في سلام!

زجر أفكاره في عنف؛ مُستنكرًا محاولته لإيجاد أعذار لزوجته. كيف يمكن أن تشفع أي مبررات للإنسان خيانته؟

شعر بالدم يغلي في عروقه، وفاقمت كرامته المجروحة من حدة غضبه. لمح انعكاس صورته على زجاج النافذة التي جواره. وانتابته رغبة عارمة في أن يكسرها ليُنفّس عن غضبه. ارتبك عندما خُيّل إليه أنه يرى ملامح أبيه في انعكاسه، قبل أن تختفي داخل حدود وجهه المنعكس مرة أخرى!

صرخ وهو يطرد الصورة من رأسه:

- كفى.

جاءت صرخته عنيفة، حتى أنه شعر بالإنهاك وكأنه بذل مجهودًا ضخمًا. أحيا ظهور أبيه صراعًا داخله لطالما حاول أن يئده بلا فائدة. كان يمقت آثار مطاردة أبيه المستمرة له. لم يظهر له في أحلامه. لم يتحدث إليه في أحلام يقظته، لم يزعجه في خيالاته. كان فقط حاضرًا في كل أفعاله! كلما أقدم على ارتكاب حماقة؛ تفاجأ بأنه ينجزها دون وعي. وتذكّر أن أغلب حماقاته كانت هي نفس حماقات أبيه التي ظل ينتقدها هو على الدوام!

تمنّى أن يرتمي في حضن أمه الذي كان يعني -في يوم من الأيام- كل الأمان له. اغتمّ عندما تذكّر معاناتها مع شكوك وأوهام أبيه. لم يسمع منها كلمة شكوى، وأرجع عدم رغبتها في مشاركته إلى أنه كان صغيرًا أو هكذا ظنّت. لكنه كان يصدّقها حتى وإن لم تنطق بكلمة واحدة، كانت تكفيه نظراتها البريئة. ظل طويلًا يتمنّى أن يدافع عنها ويحميها من تعدّيات والده. حتى جاء اليوم الذي تغيّر فيه كل شيء في عينيه.

لعلّ ذلك كان يوم أن رأى أن الشك هو طريقه لمعرفة الحقيقة. عندما بدأ في التلصص على أمه مُستعينًا بشكوك أبيه، وفوجئ بأنه لم يجده مُخطئًا في ظنونه إلى ذلك الحد الذي اعتقده! دفعته رغبته في معرفة الحقيقة كاملة؛ أن يتجسّس على أبيه أيضًا، واندهش لأنه وجد أن اتهامات أمه لم تكن زائفة مثلما ادّعى أبيه!

وبدا له أنه كلما كانت الحقيقة واضحة، كلما أضحت غير قابلة للتصديق!

حينها عرف أن الأمان قد سُلِبَ منه إلى الأبد، وقرر أن ينعزل وحيدًا، وألا ينحاز إلى أي منهما، بعدما أدرك أنه راح ضحية حقيقة واضحة تضع كليهما في نفس الجانب! خمّن أن المواجهة بينهما ستكون قريبة، وقدّر أن من سيفوز منهما هو من يستطيع فرض حُكمه بالقوة، أو بالأحرى؛ سيفوز من سيكون أسرع في تنفيذ الحُكم!

فزع عندما انتبه إلى تشابه الأحداث. تساءل... هل تلبّسَته روح أبيه؟ أم أنه قد وَرِث منه داء الشك؟

ظنّ أن الحب يصنع المعجزات، لهذا تزوّج ليلى، لأنه آمن أنها ستُبرأه من كل أسقامه. لكنه لم يكن يعرف أن المعجزات أحيانًا تأتي خبيثة، وإلا فكيف يبقى حبه لها في قلبه حيًا بعد خيانتها له!

وجد في الثأر منها شفاءً لكرامته، واعتقد أن الانتقام سيقتل غرامه بها. لكنه كان واهمًا. ظل سجينًا لعذاب مستمر لفكرة أنه قتل بيده الانسانة الوحيدة التي أحبها.

نظر إلى الطاولة التي بجواره، تأمّل صف عبّوات العقاقير المتراصة. فتحها جميعًا فتحررت أقراصها البيضاء من حبسها. سَفّ عشرات منها حتى امتلأ فمه بها. عَبّ الماء من زجاجته البلاستيكية.

كرّر ذلك بضع مرات. ثم تمدّد على الفراش في انتظار مصيره!

**

6

داهمه سواد حالك عندما فتح عينيه عن آخرهما. أحس بشلل يجمّد أطرافه. ملأه الذعر عندما تذكّر عشرات الأقراص التي تناولها. تمنّى أن يكون قد مات وألا تظل روحه مُعلّقة هكذا على هذه الحالة. ورغم أنه هو من قرر أن يُلاقي الموت؛ إلا أن الندم قد اكتسح قلبه أمام رهبته. سالت دموعه على خدّيه. ولأنه يعرف أن دموع الروح ليس لها وقع مادي؛ وعى إلى أنه لم يمت بعد.

انتبه إلى أنه يمكنه أن يتنفس، واستطاع أخيرًا أن يُحرّك أطرافه ببطء من جديد.

تحسس مكان زر إضاءة المصباح الجانبي، ضغط عليه فمنحه الضوء الخافت بعض الهدوء؛ قبل أن يتشعشع كاشفًا ملامح الغرفة.

أطرق برأسه وهو يهزه في يأس مُتمتمًا " كابوس جديد"

عاين الطاولة الجانبية، فلم يجد علب العقاقير التي كان قد توقف عن تناولها منذ وقت طويل، وأقرّ في استسلام أنه يبدو أن الوقت قد حان لتناولها من جديد.

دفن وجهه في كفّيه وهو يعترف بأسى أن ليلى كانت مُحقة؛ ما كان عليه أن يتوقف عن العلاج. نازعته نفسه إلى لذة الارتياب... هل كانت زوجته مُحقّة فقط في مسألة الدواء؟ هل كان على صواب عندما نفّذ حكمه النهائي عليها؟ انتبه إلى أن لعبة الشك لا يمكن أن يلعبها مع نفسه. إن كان هو اللاعب الوحيد؛ قطعًا ستكون كل الاحتمالات نتيجتها هلاكه.

فكّر أنه لا جدوى من كل أسئلته، فمهما كانت إجاباتها؛ فإن الزمن لن يعود. أرجع مصدر عذابه مؤخرًا إلى محاولات ضميره المستمرة للتنكيل به. وأسف أنه لم يجد وسيلة حاسمة بعد للتخلص منه مثلما فعل مع ليلى!

حركت ذكراها شوقه إليها، حتى أنه استحضرها في خياله كي يرتمي في حضنها الذي تاق إليه!

تنهّد في حُرقة تاركًا طيفها ينسلّ منه في حسرة. كان يظن أن الانسان يلجأ في وحدته إلى ذكرياته الحلوة لتُخفف عنه، لكنه كلما لاذ بها وجد أنها تترك ورائها مرارة بطعم العلقم!

تساءل... إلى أي مدى كانت ليلى على صواب؟

اعتدل جالسًا ثم التقط الدفتر الصغير من على الطاولة، بعد أن تذكّر أنه قد وضعه بجانبه كي يساعده على المقاومة في أوقات ضعفه. فتح الدفتر مُتأهّبًا كي ينهل منه ما يكفي من الوجع ليطمس آثار حنين مُزمن!

"خائنة" بخط كبير على الصفحة الأولى...

عبس وجهه... وهو يقلب الصفحة ويقرأ كل ما كتبه من قبل!

لم تكن مذكرات، وإنما مجرد أحداث مكتوبة دون ترتيب زمني محدد. تذكّر بعضها، لكنه أحس أحيانًا بأنها غامضة وغير مفهومة؛ بل وناقصة بشكل ما في كثير من المواضع، وبدا له أنها كُتِبَت لتوثيق ذاكرة لا تقوى على اختزان الألم أو تصديقه!

انتعشت ذاكرته كُلّما تقدّم في القراءة، وعادت الكثير من الاحداث حيّه في عقله. لم يعرف أبدًا كيف بدأ الانهيار؛ ولم تعد تضايقه تلك الحقيقة، منذ أن أدرك أن أي انكسار في الروح لا يحدث فجأة، وإنما تسبقه شروخًا تُهمَل كونها تكاد لا تُرى! لكنه كان على يقين بأن كل شيء بينه وبين ليلى؛ ظَلّ على ما يُرام قبل انتدابه المؤقت في العمل، عندما اضطر لقبول سفره لمدة عام واحد إلى إحدى المحافظات النائية. طلب من زوجته أن ترافقه، لكنها مانعت بحجة أنها تريد الاطمئنان على والدتها المريضة بشكل يومي. وافق على السفر بمفرده على مضض، وهوّن عليه أنه يمكنه العودة إلى منزله في نهاية كل أسبوع. مرّ الأسبوع الأول بغيضًا على نفسه، وتشبّهت به الأسابيع التي تلته. كانت ساعات كل يوم تنقضي باردة مملة قاتلة ماعدا التي يتحدث فيها مع ليلى تليفونيًا.

لعلّه الأسبوع الثالث الذي بدأ يشعر فيه ببرودة صوتها في الهاتف، لم يسمح حينها للوساوس أن تملأ عقله، وتحصّن جيّدًا بحبه لها، لكن ذلك لم يمنعه من ملاحظة زيادة حدّة البرودة في صوتها في كل مكالمة معها. رصد فتورها تجاهه في نهاية ذلك الأسبوع، ومازحها بأن بُعده عنها قد نال من شغفها به، فردت بصوت لا يشبه صوتها بأن اشتياقها له زاد في غيابه.

لكن الأسابيع اللاحقة كشفت له عكس ذلك. ازداد فتورها؛ فتنامت شكوكه. فكّر أن يواجهها مرارًا، لكنه في كل مرة يُقدم فيها على المواجهة؛ كانت روحه المذعورة من فقدانها تجعله عاجزًا عن ذلك. وبمرور الوقت باتت الاتهامات تسكن نظراته وكلماته وأفعاله. تبرّمت كثيرًا من تصرفاته في الفترة الأخيرة، لكنه لم يصارحها مطلقًا بشكوكه فيها. لم يكن مجنونًا ليجاهر بارتيابه، إن أقرّت بذنبها سيقتلها، وإن أثبتت براءتها ستتركه!

افترسته الكوابيس وانقضّت عليه بشكل يوميّ. امتنع عن النوم إلا لسويعات غفل فيها رغمًا عنه، لكن كوابيسه ظلت حاضرة فيها. انقلبت حياته جحيمًا؛ فلجأ إلى طبيب نفسي علّه يجد عنده الخلاص.

تذكّر أن الطبيب قد نصحه بأن يكتب كوابيسه كي يُفرّق بين هواجسه والحقيقة. لكنه عوضًا عن ذلك راح يدوّن كل ظنونه فيها... نظراتها، حركاتها، كلماتها حتى تصفيفة شعرها. كان ينتظر دليلًا واحدًا يريحه من هوس الترقّب.

لكن الخلاص جاء كهدية من القدر، حين عاد من سفره في غير موعده واكتشف خيانتها في غرفة نومه. قتلها على الفور؛ قبل حتى أن يعي كل ما رآه.

تصفح الدفتر... ارتبك... انتبه إلى أن هناك أيضًا سردًا لكوابيسه التي تلاحقه، وليس فقط وصفًا لماضيه.

قلّب الصفحات بعصبية وهو يتفحّص آخر ما كُتِبَ. شعر بالقشعريرة تسري في أطرافه وهو يقرأ في صمت تفاصيل الكابوس الذي ظن أنه استيقظ منه للتو.

العقاقير... الأقراص الملقاة... انتحاره.

لم يُصدّق عينيه... لم يكتب حرفًا منذ أن استيقظ. كيف إذن؟ بحث في رأسه بلا جدوى عن إجابة مقنعة.

أكمل القراءة... وجد أحداثًا لا يذكرها... زاد اضطرابه... وصل إلى آخر صفحة مكتوبة.

اتسعت عينيه في رعب وهو ينظر إلى الكلمة المكتوبة بخط ضخم وتحتها بضعة أسطر.

"استيقاظ كاذب"

الآن فقط انجلى ما بدا له غامضًا، واستكمل في عقله ما شعر به ناقصًا. الآن فقط عرف لماذا يضع الدفتر بجانبه، ولماذا يحرص على أن يكتب فيه كوابيسه.

برق في ذهنه لقاؤه الأخير مع طبيبه، أعلمه يومها بأنه مرّ في الليلة السابقة بسلسلة من أحلام متتالية متداخلة. تذكّر نبرة القلق في صوت الطبيب الذي أمره بضرورة كتابة كل ما يحلم به فور استيقاظه، وحذّره من تجاهل الالتزام بجرعات الدواء.

باغته شذا أريج لم يشمّه منذ فترة طويلة. أريج يعرفه جيّدًا ... كان عطر ليلى المُفضّل.

ردد ذاهلًا... مستحيل... هذا ليس حقيقيّ.

نظر إلى اللوحة المُعلّقة على الحائط والتي كانت تجمعه بزوجته.

شحب وجهه وهو يرمق الصورة المكسورة... لم تكن ليلى في الصورة!

أحس بالدماء تتجمّد في عروقه عندما سمع صوت ضحكاتها يأتي من خلفه. هز رأسه في قوة آملًا أن تكون مجرد تخيّلات. التفت ليجدها في مكانها مُمدّدة على الفراش في قميصها الوردي المُلطّخ بالدماء.

ميّز نبرة انتصار شامت في كلماتها...

- أخبرتك من قبل... سألاحقك في كل أحلامك... لن يفيدك الفرار.

ماتت صرخة في حلقه وهو يُحدّق فيها برعب مُتخيّلًا إياها تطارده إلى ما لا نهاية.

جاء صوتها باردًا:

- لا تخف؛ أنا لا أريدك أن تموت.. فقط سأقتلك حيًّا آلاف المرات.

شعر بقلبه على وشك التوقف عن الخفقان. وقبل أن يستنشق دفعة من الهواء جاهد للحصول عليها، كانت قد انتزعت مُقلتيه من محجريهما.

***

- أستاذة ليلى.

انتزعها السؤال من شرودها الطويل. ونبّهتها أرقام المنبّه الرقمي الموضوع على الطاولة، إلى أن شرودها قد استمر قُرابة الساعة. تطلّعت مُستفهمة في صمتٍ بعينيها العسليتين إلى الرجل الواقف أمامها في الغرفة.

تنحنح الرجل قبل أن يستفهم من جديد:

- أنتِ الأستاذة ليلى، أليس كذلك؟
- بلى.

ابتسم في ود وهو يقترب منها:

- أنا الدكتور منير فايز؛ الطبيب النفسي للأستاذ وائل.

بادلته الابتسام وهي تقف من مقعدها مُرحّبة:

- أهلًا بك.
- اسمحي لي أولًا أن أعتذر بسبب اتصالي بكِ هذا الصباح، لم أكن أعرف أنكما...

قاطعته:

- لا بأس... حدث ذلك منذ بضعة أيام فقط.
- أُقدّر لكِ أيضًا موافقتكِ على مقابلتي.

تنهّدت:

- كيف يمكنني مساعدتك؟

أشار إلى الجسد الممدد على السرير، والمحاط بأجهزة طبيّة كثيرة؛ قائلًا:

- كما تعرفين... دخل السيد وائل في غيبوبة مساء أمس.

تذكّرت كيف وصل الخبر إليها صباح اليوم، عندما وجدت عشرات المكالمة الفائتة على هاتفها المحمول، فور استيقاظها من النوم. كان الهاتف على الوضع الصامت منذ الليل كما اعتادت مؤخرًا. وعندما أعادت الاتصال بأحد الأرقام؛ أخبرتها المستشفى بأن زوجها في غيبوبة، وطلبوا منها الحضور بصفتها زوجته.

نظرت إلى جسد وائل المسجى أمامها على الفراش، كانت تتأرجح ما بين الشعور بالذنب لأنها تخلّت عنه رغم أنها تعلم احتياجه لها، وبين شعور الكراهية الذي ملأها تجاهه بسبب ظنونه التي تحوّلت إلى اتهامات صريحة دمّرت حياتهما تمامًا. اعتبرت ظنونه في البداية مجرد غيرة مقبولة، إلا أن الأمر أصبح لا يُطاق منذ سفره. تدريجيًا؛ ازدادت مكالماته التليفونية، تضاعفت مدة المكالمات لتمتد لساعات طويلة كل يوم. ندرت الكلمات وصار الصمت يتخلل مساحات كبيرة فيها.. أما عندما كان يأتي في نهاية الأسبوع، كانت تتظاهر أنها لم تلحظه

وهو يتحقق من كل شيء في المنزل، وكأنه يبحث عن فتيل قابل للاشتعال من أجل مشاجرة مثيرة. لم يجد شيئًا بطبيعة الحال، لكنه كان ماهرًا في تحويل سفاسف الأمور إلى مسرحيّات عظيمة يُنفّس فيها عن توتّره. لم يصارحها بحقيقة شكوكه أبدًا، رغم أن نظراته كانت دومًا تفضحه.

تعجّبت من عشقها له الذي انقلب إلى مقت في ظرف بضعة أسابيع. وأرجعت ضعفها الذي جعلها تهرع إليه فور علمها بخبر وقوعه في الغيبوبة؛ إلى بقايا جذوة حب خافتة لازالت تحيا في قلبها تجاهه رغم كل القسوة التي نالتها منه.

بكّتت نفسها في عنف على هشاشتها، واستحضرت من ذاكرتها وجع اليوم الأخير بينهما، وكأنها تلتمس من الوجع قوة تحرّضها على قتل آخر ذرة حب له.

- هل أنتِ على ما يُرام؟

انتبهت إلى شرودها فاعتذرت:

- عفوًا شردت قليلًا... هل تمانع أن تعيد عليّ كلامك مرة أخرى من فضلك؟
- لا عليكِ... كنت أقول إنني تلقيت من زوجكِ اتصالًا مساء أمس؛ بدا متوترًا بشكل بالغ، وأخبرني أنه حَلِم بكابوس غريب في ليلته السابقة.

لم يُفاجئها ذلك... كانت شاهدة على كوابيسه المزعجة التي تعاظمت بشكل ملحوظ في الأسابيع الأخيرة. نصحته بمراجعة طبيب نفسي. اعترض كثيرًا لكنه أذعن في النهاية تحت وطأة استمرار تلك الكوابيس. داوم على العلاج لفترة قبل أن ينقطع عنه وتبدأ ظنونه بعدها تبدو أكثر جنونًا.

استعادت هيئة وائل المجنونة التي اقتحم بها منزلهما في اليوم المشؤوم. كان يصرخ مسعورًا وهو يفتّش في كل ركن من أركان البيت. لم تستوعب الأمر في البداية، وظنت أنه غاضبًا نتيجة مشكلة في العمل، لكن الذهول جمّدها عندما راح يهذي في هياج سائلًا إياها بكل وقاحة "أين هو؟"

دفعت أفكارها بعيدًا... سخرت وهي تهز رأسها في مرارة واضحة:

- لم يكن في حياته سوى الكوابيس.
- اسمعي... أنا أتفهّم معاناتكِ مع شخص لديه جنون ارتياب، لكن يبدو أن الهلوسة تداخلت مع الهُذاء الذي لديه.
- لم أفهم.
- ما وصفه وائل لي هو ما نطلق عليه اسم استيقاظ كاذب.

استفسرت:

- ماذا؟
- سأشرح لكِ... الاستيقاظ الكاذب هو عبارة عن حلم مقنع جدًا عن الاستيقاظ من النوم، يعتقد الحالم بأنه في أرض الواقع، بينما هو لا يزال مُستغرقًا في النوم. لا تتعجبي، يمر أغلبنا بمثل هذه الظاهرة، لابد أنكِ قد مررتِ بتجربة حلم التأخر عن العمل أو عن الامتحان.
- حسنًا... إن كان الأمر شائعًا على حد قولك، فما المشكلة؟
- لأن هناك نوعان من الاستيقاظ الكاذب، النوع الشائع هو النوع الأول الذي يكون الحلم فيه طبيعي ومنطقيّ.

سألته في ترقّب:

- والنوع الثاني؟
- النوع الثاني؛ تكون فيه أجواء الحلم مشوّشة، وقد تظهر مخاوف النائم بشكل درامي ومثير وغير منطقي في أغلب الأحيان، لكن المشكلة تكمن في حالة التكرار التي تحدث فيها عملية الاستيقاظ.
- كيف؟
- بأن يستيقظ النائم عدة مرات خلال الحلم الواحد، أي يصحو في الحلم ثم يمر بأحداث، ثم يصحو مجدًدا بينما هو نائم في الحقيقة.
- هل تقصد حلم داخل حلم؟
- بالضبط... لكن لا يقتصر الأمر على حلمين فقط، هناك حالات بلغت عشر أحلام متتالية، وهناك من ادّعى مروره بمائة حلم متتالي.

ابتلعت ريقها في توتر من الفكرة:

- ما الذي أخبرك به وائل تحديدًا؟
- قال إنه أحس أثناء نومه وكأنه في حلم داخل حلم داخل حلم، وشعرت من نبرة صوته أن الأمر كان بالنسبة له مخيفًا. خشيت أن يفقد القدرة على تمييز الحقيقة والأحلام. لهذا طلبت منه أن يكتب كل ما يحلم به في دفتره الشخصي. كما أخبرته بضرورة استكمال العلاج فورًا.
- هل تعتقد أن هذا هو ما أدى إلى وقوعه في غيبوبة؟
- لا أستطيع الجزم بذلك. كل ما أعرفه أن زوجكِ جاء عقب اتصاله بي إلى قسم الطوارئ هنا في المستشفى. أخبرهم أنه يشعر بألم حاد في الصدر وضيق في التنفس. شخّصوا حالته بأنها ذبحة صدرية مستقرة. بعد وقت قصير استقرت حالته وراح في النوم، قبل أن يدرك قسم التمريض أنه قد سقط في غيبوبة. عرفت كل ذلك لأن المستشفى قامت بالاتصال بي كون رقمي هو آخر رقم تم الاتصال به من هاتف زوجكِ.

استوضحت:

- لا أظن أنك قد طلبت مقابلتي من أجل أن تشرح لي حالته يا دكتور منير. أليس كذلك؟

أقرّ:

- صحيح. أنا أرغب في الاطلاع على دفتره الشخصي. عرفت بطريقتي أنه ضمن متعلقاته بخزينة المستشفى، وأنتِ الوحيدة التي تستطيعين استلامها. قد أجد فيها ما يساعدني على فهم حالته.

أومأت برأسها في تفهّم:

- حسنًا سآتيك به... أنت طبيبه الخاص على كل حال.
- أشكركِ على تفهّمكِ...هل ترغبين في إلقاء نظرة عليه أولًا؟
- لا... لم يعد يعنيني الأمر.

أومأ بدوره:

- على كل حال سأعيده لكِ بعد اطلاعي عليه.

هزّت رأسها وهي تتنهّد:

- تستطيع الاحتفاظ به حاليًا، ثم تعيده لصاحبه...

نظرت إلى جسد وائل وهي تُكمل:

- إن عاد لوعيه.

لبضع لحظات... وقبل أن تخرج من الغرفة؛ أمعنت النظر في زوجها في حياد مُتسائلة؛ هل جاءت اليوم كي تقف بجانبه حقًا أم كي تتأكد من أنه سيرحل ليختفي من حياتها إلى الأبد!

تـَـمَّـــت

أحمد فؤاد – 22 آذار مارس 2020

في انتظار تقييمكم للقصة على موقع Goodreads على الرابط التالي

https://www.goodreads.com/book/show/52718441

للتواصل: Twitter: @ahmoda